حياة أعظم الرسل

محمد يمنع القتال بين القبائل

مُحَمَّد يمنَع القِتَال بين القبائِل

مِن هٰذِهِ القِصَّةِ يَا بُنَىَّ سَتَعرِفُ كَيفَ كَانَ مُحمدٌ مَحبُوبًا بَينَ أَهلِ مَكَّةَ . فَبِحِكْمَتِهِ وَحُسْنِ تَفكِيرِهِ مَنَعَ النِّزَاعَ وَالقِتَالَ بَينَ أَربَعِ قَبَائِلَ ، أَرادَتْ كُلٌّ مِنهَا أَن يَكونَ لَهَا الشَّرَفُ فِي وَضْعِ الْحَجَرِ الأَسوَدِ فِي مَوضِعِهِ بِالْكَعْبَةِ . فَقَد حَدَثَ أَن أَمطَرَتِ السَّمَاءُ مَطَرًا شَدِيدًا ، فَبَدَأَت

حِيطَانُ الْكَعْبَةِ تَقَعُ وَتَسقُطُ عَلَى الأَرضِ. وَبعدَ تَفكِيرٍ طَوِيلٍ عَزَمَ أَهلُ مَكَّةَ عَلَى بنَائِهَا ثَانِيَةً بنَاءً جَديداً ، فَاجتَمَعَتِ الْقَبَائِلُ ، وجَمَعَتْ مَالاً حَلاَلاً لِبنَاءِ الْكَعْبَةِ ، وَأَخَذَ أَشرَافُ مَكَّةَ يَحمِلُونَ الحِجَارَةَ عَلَى أَكتَافِهِم ، وَكَانَ الْعَبَّاسُ عَمُّ الرَّسُولِ ، وَرَسُولُ اللهِ مِمَّن يَحمِلُونَ تِلكَ الْحِجارَةَ لِبنَائِهَا .

وَكَانَ مِن حُسْنِ الْحَظِّ أَنَّ سَفِينَةً يَملِكُهَا مُهَندِسٌ رُومِيٌّ اسمُهُ (بَاقُومُ) قَد

تَعَطَّلَتْ فِى جُدَّةَ[1] ، وَصَارَتْ غيرَ قابِلَةٍ لِلْإِصلاحِ . بَلَغَ الخَبَرُ أَهلَ مَكَّـــةَ ، فَأَرسلُوا الوَلِيـدَ بـنَ المُغِيـرَةِ لِيَشتَــرِىَ خَشَبَ السَّفِينَةِ مِن (بَاقومَ) ، وَيَطلُبَ مِنهُ مُسَاعَدَتَهُم فِى إِعَادَةِ بِنَاءِ الكَعْبَةِ ، وَالتَّعَاوُنَ مَعَ نَجَّارٍ مِصرِىٍّ فِى أَعمَــالِ النِّجَارَةِ ، وَنَجَحَ الوَلِيدُ فِـى مُهِمَّتِــهِ ، وَاشتَرَى خَشَبَ السَّفِينَةِ ، وَرَجَعَ إِلَـى مَكَّةَ وَمَعَهُ باقُومُ ، وَالخُطَّةُ الَّتِى أُعِدَّت لِبنَاءِ الكَعْبَةِ مِن جَدِيدٍ . وَقَـد خُصِّصَ

---

(١) هى ميناء عربية على البحر الأحمر .

لِكلِّ قَبِيلَةٍ رُكنٌ مِنَ الْأَركَانِ الأَربَعَةِ ، حَتَّى لَا تنفَرِدَ قَبِيلَةٌ بِشَرَفِ بِناءِ الكَعْبَةِ وَحدَهَا . وَلكِن ظَهَرَتْ أَمَامَهُم مُشكِلَةٌ أُخرَى — وَهِىَ مُشكِلَةُ هَدْمِ الْبِنَاءِ الْقَدِيمِ — . وَقَد خَافُوا مِن غَضَبِ آلِهَتِهِم — وَهِىَ الأَصنَامُ — إِذَا هَدَمُوا المَبَانِىَ . وَلَم يَجسُرْ أَحدٌ مِنهُم أَن يَمَسَّهَا بِفَأسِهِ . وَقَالَ أَحَدُهُم : هَل نَسِيتُم مَا حَدَثَ لِأَبْرَهَةَ[1] وَجَيشِهِ

(١) ملك نصرانى على اليمن ، وهجم على مكة سنة ٥٧٠ م .

وَفِيَلَتِهِ حِينَمَا جَاءُوا لِهَدْمِ الْكَعْبَةِ ؟ إِنَّ آلِهَةَ الْكَعْبَةِ قَد حَمَتْهَا ، وَانْتَشَرَ الْمَرَضُ بَينَ أَبْرَهَةَ وَجَيشِهِ ، وَأَهلَكَهُمُ المَرَضُ جَمِيعًا . إِنَّ هَدْمَهَا سَيُغضِبُ الآلِهَةَ .

وَقَفَ الْوَلِيدُ بنُ الْمُغِيرَةِ وَقَالَ لَهُم : أَيُّهَا الْأَصدِقَاءُ ، إِنَّ أَبْرَهَةَ كَانَ يُرِيدُ الاِعتِدَاءَ عَلَى الكَعْبَةِ بِهَدْمِهَا ، ولَـكِنَّنَا نُرِيدُ إِصلاَحَهَا ، وَبناءَهَا مِن جَدِيدٍ . وَهُنَاكَ فَرْقٌ كَبِيرٌ بَينَنَا وَبَينَهُ . وَلاَ يَتَيَسَّرُ لَنَا الْبِنَاءُ الْجَدِيدُ إِلاَّ إِذَا هَدَمنَا الْقَدِيمَ .

وَرَأى أَشرَافُ مَكَّةَ أَنَّ كَلامَ الْوَلِيدِ يَقبَلُهُ الْعَقلُ والتَّفكِيرُ السَّلِيمُ . وَلٰكِن لَم يَجرُؤْ أَحَدٌ عَلَى الْهَدْمِ خَوفًا مِنْ غَضَبِ الْأَصنَامِ .

فَأَخَذَ الْوَلِيدُ فَأْسًا فِى يَدِهِ وَقَالَ لَهُم : سَأَكُونُ أَوَّلَ مَن يَضرِبُ الضَّرْبَةَ الْأُولَى ، فَإِذَا أَصَابَنِى ضَرَرٌ فَلاَ تَتَعَاوَنُوا مَعِى . وَبِفَأْسِهِ أَزَالَ بَعضَ الْحِجَارَةِ المَكسُورَةِ مِن أَحَدِ أركَانِ الْكَعْبَةِ ، فَبَدَأَتِ الحِجَارَةُ الرِّخوَةُ تَقَعُ عَلَى

الْأَرضِ ، وَلَم يَحدُثْ لِلْوَلِيدِ أَىُّ ضَرَرٍ .
فَاستَمَرَّ فِى الْهَدْمِ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمسُ .
ذَهَبَ أَهلُ مَكَّةَ إِلَى بُيُوتِهِم ، وَلَم يَنَمْ
أَحَدٌ فِى تِلكَ اللَّيلَةِ . وَاستَمَرُّوا فِى قَلَقٍ
طولَ اللَّيلِ . وَاعتَقَدُوا أَنَّ ضَرَرًا مُحَقَّقًا
سَيَحْدُثُ لَلوَلِيدِ ، كَأَن يَستَيقِظَ وَيَجِدَ
نَفسَهُ عَاجِزًا عَن تَحرِيكِ ذِرَاعِهِ ، أَو يَجِدَ
نَفسَهُ أَعمَى لاَ يُبصِرُ ، أَو يَمُوتَ أَحَدُ
أَولاَدِهِ .

وَفِى الصَّبَاحِ الْمُبَكِّرِ مِنَ الْيَومِ التَّالِى
تَرَكَ النَّاسُ بُيُوتَهُم ، وَذَهَبُوا مُسرِعِينَ إِلَى

الْكَعْبَةِ ، لِيَرَوْا مَا حَدَثَ لِلوَلِيدِ .
وَانتَظَرُوا جَمِيعًا وُصُولَهُ . وَيُمكِنُكَ أَن
تَتَخَيَّلَ مِقدَارَ تَعَجُّبِهِم وَاستِغرَابِهِم حِينَمَا
رَأَوْهُ آتِيًا يَخْطُو خطَوَاتٍ وَاسِعَةً ، وَهُوَ
عَلَى أَحسَنِ مَا يَكُونُ مِنَ الصِّحَّةِ
وَالْعَافِيَةِ ، وَلَم تُصِبْهُ أَصنَامُهُم بِأَيِّ
ضَرَرٍ . وَقَد رَضُوا الآنَ بِالِاشتِرَاكِ مَعَهُ
فِى إِزَالَةِ مَا هُدِمَ مِنَ الْمَبَانِى . وَبَدءُوا
يَعمَلُونَ بِحَمَاسَةٍ وَنَشَاطٍ فِى البِنَاءِ
الْجَدِيدِ . وَاشتَرَكَ بَعضُهُم فِى حَملِ
الْحِجَارَةِ مِنَ الْجِبَالِ ، وَالبِنَاءِ ، وَعَاوَنَ

كُلٌّ مِنهُم فِى تَجدِيدِ بِنَاءِ الْكَعبَةِ . اِستَمَرَّ
الْبِنَاءُ مُدَّةً فِى هُدُوءٍ وَسَلَامٍ وَتَعَاوُنٍ حَتَّى
ارتَفَعَتِ الْمَبَانِى بِقَدْرِ طُولِ الْإنسَانِ
العَادِيِّ . فَأَخَذُوا يُفكِّرُونَ فِى وَضعِ
الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ ثَانِيَةً فِى مَوْضِعِهِ مِنَ
الكَعْبَةِ . وَإِنَّ وَضْعَ الحَجَرِ الأَسوَدِ فِى
مَوْضِعِهِ يُعَدُّ شَرَفًا عَظِيمًا لِمَن يَضَعُهُ .
وَلِهٰذَا تَنَافَسَتِ الْقَبَائِلُ الأَربَعُ ، وَأَرَادَتْ
كُلُّ قَبِيلَةٍ أَن تَحتَفِظَ بِهٰذَا الشَّرَفِ
لِنَفْسِهَا ؛ لِاعتِقَادِهَا أَنَّهَا هِىَ الَّتِى تَستَحِقُّهُ
دُونَ غَيرِهَا . وَأَخَذَ رُؤَسَاءُ القَبَائِلِ

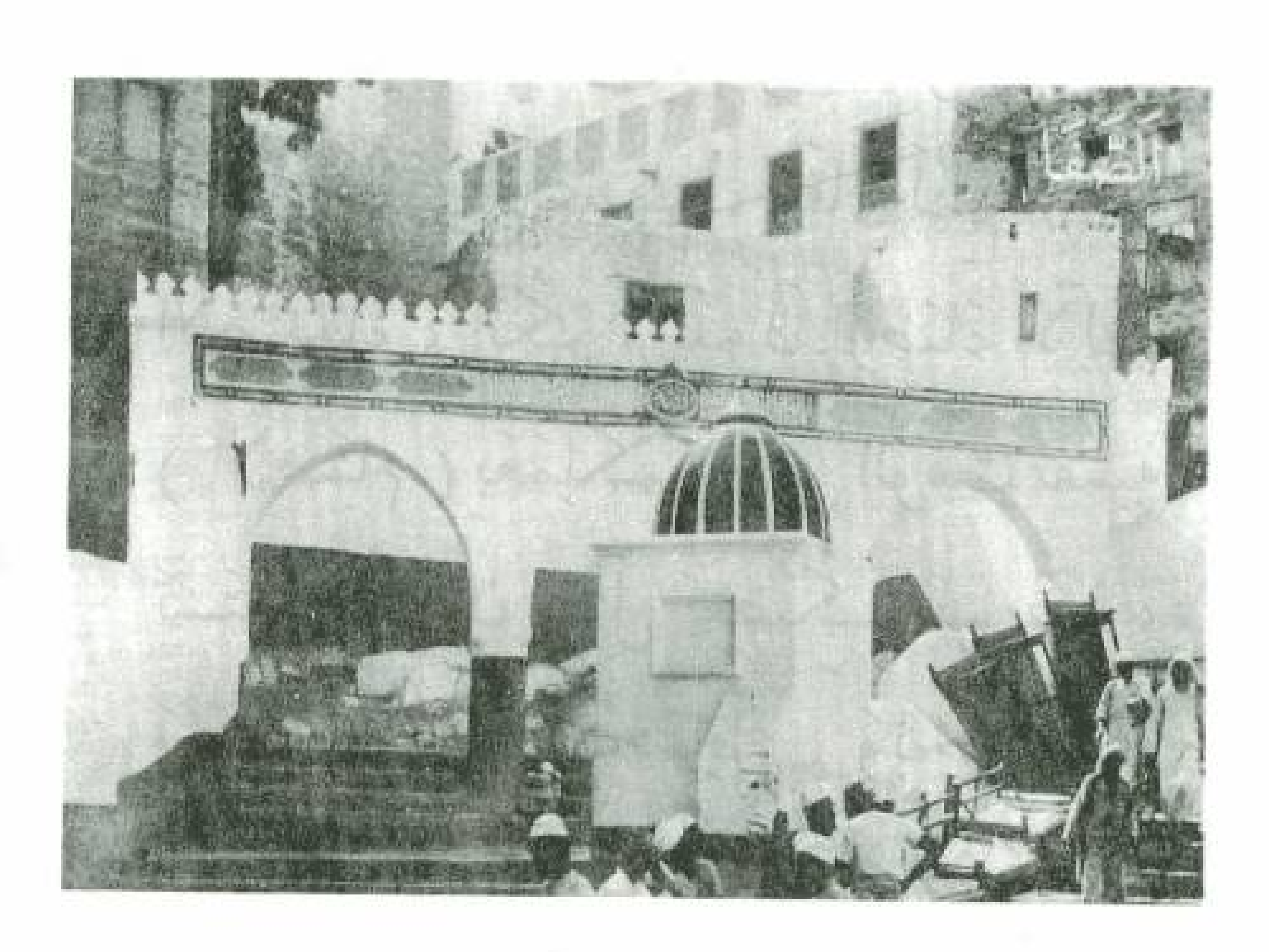
يَتَنَازَعُونَ فِيمَا بَينَهُم ، وَلٰكِنَّهُم لَم يَستَطِيعُوا الوُصُولَ إِلَى اتِّفَاقٍ يُرضِي الجَمِيعَ ، حَتَّى قَرُبَ الخِلافُ أَن يَصِلَ إِلَى الْحَرْبِ وَالْقِتَالِ بينَ المُتَنَازِعِينَ . وَقَد حَلَفَ رُؤَسَاءُ الْقَبَائِلِ أَنَّهُم لَن يَتَخَلَّوْا عَن هٰذَا الشَّرَفِ ، مَهمَا تَكُنِ الظُّرُوف .

وَكَان مَنعُ هٰذِهِ الْحَربِ يُعَدُّ مُستَحِيلاً .

وَاستَمَرَّ الْخِلافُ عَلَى مَن يَضَعُ الْحَجَرَ الأَسوَدَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الْكَعْبَةِ ـــ أَربَعَةَ أَيَّامٍ ، وَلَم يَجِدُوا حَلاً مُرضِيًا لِهٰذِهِ الْمُشكِلَةِ الْمُعَقَّدَةِ .

وَحِينَئِذٍ رَأَى أَكبَرُ الْحَاضِرِينَ سِنًّا ، أَنَّ المُشكِلَةَ قَد اشتَدَّ أَمْرُهَا ، وَلاَبُدَّ مِن حَلِّهَا ، فَاقتَرَحَ عَلَيهِم ، وَقَالَ لَهُم : أَيُّهَا الأَصدِقَاءُ ، إِنَّكُم تُرِيدُونَ إِرْضَاءَ الآلِهَةِ (الأَصنَام) بِعَمَلِكُم ، وَفِي الوَقتِ نَفسِهِ تَستَعِدُّونَ لِأَن يَقتُلَ بَعضُكُم بَعضًا ، وَهٰذَا أَمرٌ لاَ يَقبَلُهُ عَاقِلٌ . وَلِحَلِّ هٰذِهِ الْمُشكِلَةِ أَرَى أَن تَجعَلُوا أَوَّلَ مَن يَدخُلُ بَابَ الصَّفَا[1] ــ حَكَماً بَينَكُم ، وَتُنَفِّذُوا مَا يَقُولُهُ ، وَمَا يَحكُمُ بِهِ . فَقَبِلَ جَمِيعُ

(١) الصَّفَا : مَوضِعٌ بِمَكَّةَ .

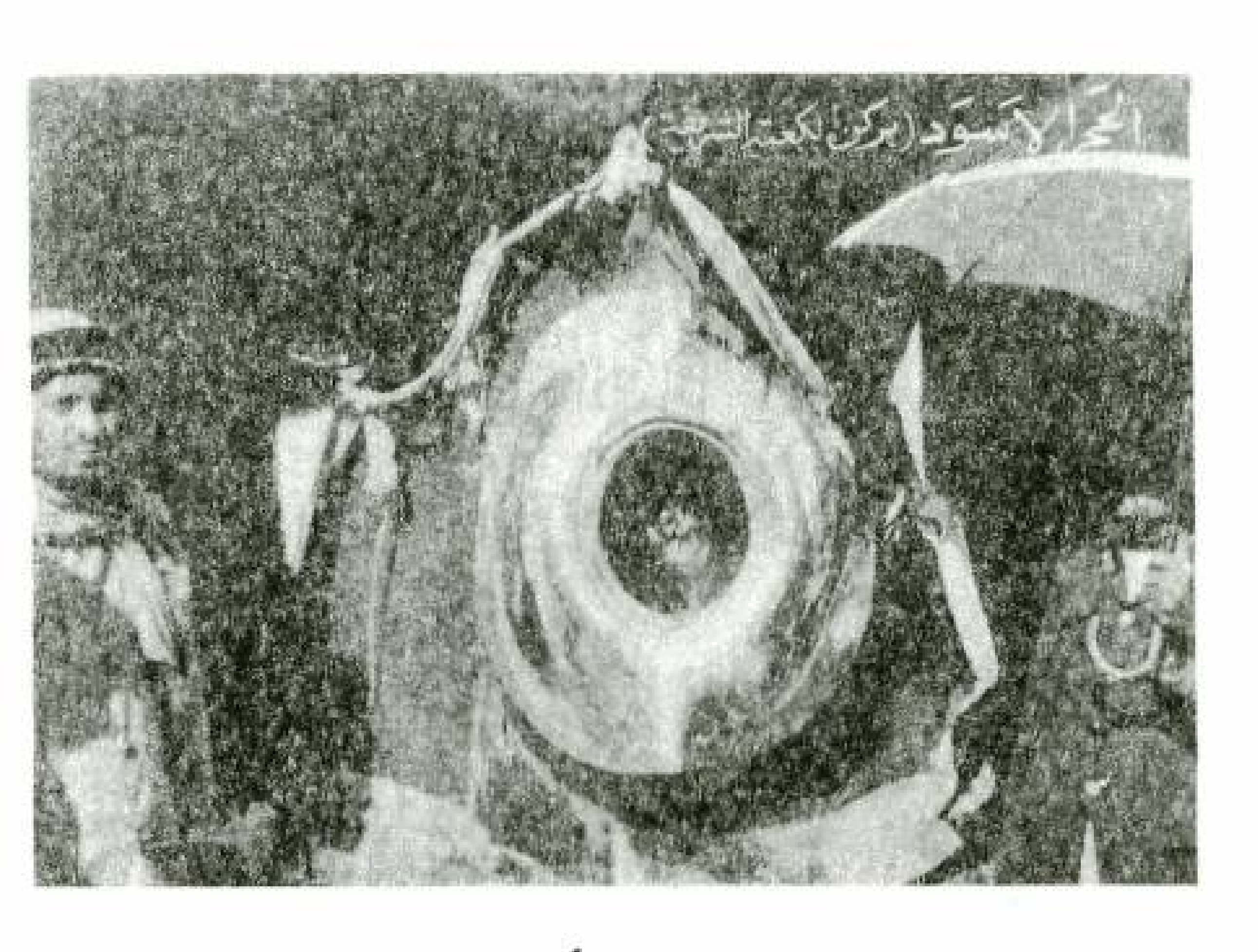


الصَّــفَا

الْحَاضِرِينَ هٰـذَا الرَّأْىَ . وَبَعدَ قَلِيلٍ ظَهَر عِندَ بَابِ الصَّفَا خَيرُ شُبَّانِ مَكَّةَ ، وَهُوَ الأَمينُ المَأمُونُ ، مُحمدُ بنُ عَبدِ اللهِ ، فَلَمَّا رَأَوْهُ اِطمَأَنُّوا لَهُ كُلَّ الاِطمِئْنَانِ ؛ لِمَا يَعرِفُونَـهُ عَنـهُ مِـنَ الْأَمَانَـــةِ وَصِدْقِ الْحَدِيثِ ، وَالْعَدَالَـةِ فِـى الحُكْـمِ ، وَصَاحُوا جَمِيعًا فَرَحًا : هٰـذَا الْأَميـنُ يَستَحِقُّ كُلَّ ثِقَةٍ ، وإِنَّنَا راضُونَ بِحُكْمِهِ ؛ لِأَنَّهُم كَانُوا يَتحَاكَمُونَ إِلَيهِ ، فَيَحكُـمُ بِالحَقِّ ، وَلاَ يَخَافُ لَوْمَةَ لاَئِمٍ .

وَوَضَعُوا جَمِيعًا أَسلِحَتَهُم ، مُطمَئِنِّينَ

إِلَى حُكْمِهِ ، وَأَخبَرُوهُ بِمَا حَدَثَ . فَفَكَّرَ قَلِيلاً ، ثُمَّ بَسَطَ رِدَاءَهُ عَلَى الْأَرضِ وَقَالَ . لِتَأْخُذْ كُلُّ قَبِيلَةٍ مِنكُم بِنَاحِيَةٍ مِنَ الرِّدَاءِ ، ثُمَّ وَضَعَ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ بِيَدَيْهِ فِى وَسَطِ الرِّدَاءِ ، وَأَمَرَهُم بِرَفْعِهِ وَحَمْلِهِ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِى سَيُوضَعُ فِيهِ ، فَحَمَلُوهُ حَتَّى انتَهَوْا إِلَى مَوْضِعِهِ ، فَأَخَذَهُ مُحَمَّدٌ وَوَضَعَهُ فِيهِ . وَبِهٰذِهِ الوَسِيلَةِ حُلَّتِ الْمُشكِلَةُ الَّتِى لَم يَستَطِيعُوا حَلَّهَا فِى أَربَعَةِ أَيَّامٍ ، وَمَنَعَ مُحَمَّدٌ القِتَالَ والْحَرْبَ وَإِرَاقَةَ الدِّمَاءِ بِحِكمَتِهِ الْمَعرُوفَة ،



الحجر الأسود

(بركن الكعبة الشريفة)

وَقَضَائِهِ العَادِلِ ، وَرَأْيِهِ الصَّائِبِ . وَقَد رَضِىَ الجَمِيعُ بِحُكْمِهِ . وَكَانَ مُحمدٌ العَظِيمُ مُوَفَّقًا كُلَّ التَّوفِيقِ فِيمَا فَعَلَ . وَانتَهَى النِّزاعُ بَينَ القَبَائِلِ الأَربَعِ بِفَضلِ مُحَمَّدٍ اليَتيمِ الصَّادِقِ الأَمِينِ ، وَكَانَ أَصغَرَ الحَاضِرِينَ سِنّاً . وَلَولاَهُ لَحَدَثَتْ حَربٌ شَدِيدَةٌ بَينَ الْعَرَبِ ؛ لِأَنَّ البَيتَ الْحَرَامَ قِبلَةُ العَرَبِ ، وَكَعْبَتُهُم الَّتِى يَحُجُّونَ إِلَيهَا . وَلِهٰذَا تَنَافَسُوا فِى الفَخْرِ ، وَتَنَازَعُوا عَلَى السِّيَادَةِ .

⁂